

## العلم صنيعة الخيال

### قصص الأطفال بين التراث والخيال العلمي

أ. أحمد طوسون



يذهب البعض إلى أن العلاقة ما بين التراث وأدب الخيال العلمي علاقة يمكن اختصارها في جذور تاريخية بعيدة للون من الأدب، يعد بحق ابناً شرعياً لعصر العلم، يؤرخ لبداياته الحقيقية بشكله الحديث في القرن التاسع عشر على يد الفرنسي (جول فيرن) "١٨٢٨ - ١٩٠٥"، والإنجليزي (هربرت جورج ويلز) "١٨٦٦ - ١٩٤٦".

وإذا كانت البدايات الحديثة لأدب الخيال العلمي يبدأ التاريخ لها في القرن التاسع عشر، فمرجع ذلك في ظني يرتبط ببعض تعريفات المهتمين لأدب الخيال العلمي الذي يعرفه البعض بأنه نوع من التوفيق ما بين النشاط الخيالي والنشاط العلمي، كما يرتبط بمفهومنا للعلم وتعريفاته التي اختلفت من العصور الأولى التي كانت في عصور سحيقة تربط مفهوم العلم بالشعائر والطقوس الدينية، والطوطمية، والسحرية، وفي عصور أخرى كان مرتبطاً بالفلسفة، قبل أن ينفصل عنها، فالارتباط بين مفهوم العلم والفلسفة في العصور القديمة، ثم انفصال العلم الذي يتميز بالملاحظة، والتجربة، والقياسات، والبراهين الرياضية تدريجياً عن مفهوم الفلسفة التي تعتمد على التفكير والتأمل والتدبر العقلي في الكون، جعل المهتمين يؤرخون لأدب الخيال العلمي بكتابات "فيرن" و"جورج ويلز"، ويعتبرون كتابات الفارابي في آراء أهل المدينة الفاضلة وابن طفيل في حي بن يقظان (لكونهما ينتميان للفلسفة أكثر من العلم)، ومن قبلهما لوسيان السوري

الذى ألف باليونانية القديمة كتابًا سماه (قصة حقيقية) عام ٢ ق م، ويعد أول محاولة قصصية معروفة للسفر إلى القمر، مجرد بذور أولى لجذور هذا اللون من الأدب الذى ربطوه بثورة العلم فى القرن التاسع عشر!.

## الخيال العلمى فى موروث الإنسانية :

لاشك أن التاريخ الإنسانى فى كافة مناحى المعرفة والعلوم والإنسانيات يمثل حلقات يكمل بعضها البعض، وأن الطفرات الكبيرة التى حدثت فى العلوم والمعارف المختلفة وإن اختلفت من عصر إلى عصر إلا أن كلها نتاج تراكمات الفكر الإنسانى عبر العصور المختلفة واستفادة كل جديد بما قبله من قديم.

وإذا كان العلم يبدأ بالتفكير والابتكار، فإن دافع الإنسان إلى التفكير ينشأ نتيجة الحاجة التى تتمثل فى تطويع ما حوله لصالحه ولصالح عمران الأرض وتمهيدها، وأن أى تفكير يسبقه خيال واسع قد يخدم الحقيقة كما قد يخدم الوهم فى سياق نزوع النفس وشوقها لما تحب وتأمل. ولاشك أن الخيال الأول للإنسان ارتبط باستكشاف ما حوله وفق احتياجات فرضتها الطبيعة القاسية، ولعل اكتشافات العصر الحجرى الأول جاءت وليدة الحاجة لتطويع الطبيعة، والتى سبقها خيال قاد الإنسان ليعرف كيف يولد النار من احتكاك الصخر بجسم معدنى، وكيف يصنع الفؤوس والآلات الأخرى من العظام والصخور وقرون الحيوانات، وكيف يصنع السهام والرماح والسيوف ليصطاد بها الحيوانات، ثم كيف اهتدى لاستخدام فرائها وجلودها كملابس تقيه من البرد فى الشتاء وحرارة الشمس فى الصيف.

النار التى تعد الاكتشاف الأهم للحضارة الإنسانية الوليدة على كوكب الأرض، تولدت فى عصر شفاهى، لكن الأسطورة الإغريقية تصور معرفة الإنسانية بالنار فيما تحكيه أسطورة بروميثيوس (المارد العظيم ابن الأرض الذى أحب البشر وساءه أن يرى آلهة الأولمب تضن على البشر بنعمة النار مصدر كل حضارة وتقدم وتتركهم يعيشون كالوحوش فى كهوف باردة ومظلمة، فصعد المارد "بروميثيوس" إلى السماء حاملاً غائباً مجوّفاً، حتى بلغ الشمس، ومن ضرامها سرق شعلة وخبأها فى تجويف الغاب، ثم هبط إلى الأرض وأعطى البشر النار التى سرقها من الآلهة، فدبت الحياة والعمران فى أرجاء الأرض، وبفضل النار ابتكر البشر مختلف العلوم والفنون والصناعات وخرجوا من الظلمات إلى النور).

فالخيال العلمى للإنسان ارتبط فى بداياته بالأساطير والخرافات، وكان الربط ما بين العلم

والسحر والخلط بينهما قائمًا في خيال إنسان ذلك العصر ووعيه، فاكتشاف المعادن وصهر الحديد في العصر النحاسي كان يتم بطقس ديني منتظم وبخاصة عندما توضع عليه عدة أشياء سحرية وذلك قبل أن يبدأ عمال الكير عملهم.

وتحكي الأسطورة اكتشاف الإنسان لعنصر الحديد : (وفي يوم مقدس، قررت الأرواح الخيرة أن ترسل الإله "بوشنتوج" وأبناءه التسعة إلى الأرض ليعلموا البشر المهنة المقدسة، ثم عاد الإله بعد هذا إلى السماء، بينما تزوج أبناؤه من بنات البشر، وكان تلاميذهم أجدادًا لكل من جاء بعدهم من الحدادين، وكان لكل واحد من التسعة اسم خاص به وهم القديسون حماة أدوات الحدادة. ويعنى الشامانيون رجال الطب تمجيدًا لهم أهازيج مقدسة في كل مكان حول المعبد حتى تهدأ أرواح الكير المقدسة).

### الأسطورة وسيلة لإدراك الحياة :

لعبت الأسطورة دورًا هامًا في حياة الإنسان البدائي وتشكيل رؤيته للواقع من حوله، ففي هذه المرحلة الحضارية صيغت الأساطير بوصفها الحكايات المرتبطة بحياة الناس ومستقبلهم وعلاقتهم بالقوى الخفية التي كانوا يعزونها في كل الأشياء من حولهم بما فيها الحجر والمطر والزلازل، ولأن الإنسان البدائي كان يسعى لاسترضاء هذه القوى والأرواح والأشباح؛ فإن الطقوس والشعائر والعبادات اتخذت وسيلة إلى ذلك في المناسبات المختلفة. وفي الأساطير القديمة كلام كثير يدخل ضمن التاريخ الطبيعي ويؤيد ذلك ما ورد عن الاهتمام بالطب الذي كان السحر أدواته وإقامة طقوس الدفن والنزول إلى عالم الموتى بحثًا عن الخلود.

وهناك الكثير من الأساطير التي تدور حول نشأة الكون وتصور الإنسان القديم للأرض والسماء والأفلاك والنجوم وحركتها والظواهر الكونية المختلفة، وفي أساطير مصر القديمة، كان أقدم ما تخيله المصريون في أصل العالم المعمور أنه عالم واسع من الماء طفت عليه بيضة عظيمة خرج منها رب الشمس وأنجب أربعة أبناء هم : "شو"، و"تقنوت"، القائمان بالفضاء، و"جب" رب الأرض، و"نوت" رب السماء. ثم تزوجت السماء والأرض فولد لهما "أوزوريس"، و"إيزيس"، و"ست"، و"نفتيس".

## رواية (التاريخ الصحيح) والصعود إلى القمر :

من أقدم القصص التي يصور فيها الإنسان رحلة إلى القمر، يروي لنا الأديب في رواية (التاريخ الصحيح) حكاية جماعة من الناس خرجت في رحلة تبغى الوصول إلى الجنة أو جزر الخلد كما كان اليونانيون يسمونها، وكانوا يعتقدون أن الجنة أو جزر الخلد هذه تقع في أقصى الغرب، بعد أعمدة هرقل التي تسمى الآن بجبل طارق، وفي الرواية : (خرجت الجماعة في سفينتها حتى تجاوزت أعمدة هرقل، وهنا تعلقت بالفضاء، وفي الفضاء التقت برجال القمر على سطحه، وهناك علمت أنهم يقتتلون مع سكان الشمس من أجل استعمار نجمة جميلة هي نجمة الصباح. وقد انحاز البشر إلى رجال القمر يخوضون معهم حرباً كونية غريبة. ثم ابتلعهم بسفينتهم وحش بحري هائل لكنهم ما لبثوا أن نجوا من هذا الوحش وخرجوا سالمين فواصلوا رحلتهم إلى جزائر الخلد حيث السعادة الدائمة).

وهناك أيضاً وصف لسفينة فضائية في سفر "حزقيال" حيث يصف النبي اليهودى سفينة فضائية نزلت أمامه بالقرب من بغداد قبل أن نعرف سفن الفضاء بألوف السنين، ورحلة "جلجامش" و"انجيدو" وهما مستقلان مركباً فضائياً تطوف بهما بين السماء والأرض في أسطورة "جلجامش".

ويرى نهاد شريف أن الأساطير تتميز بخيالها الجامح أو ما يسمى "بالفانتازيا" وتتمثل في حلم الإنسان بتجاوز الحواجز الزمانية، والمكانية (دون أن يقوم هذا الحلم على أية أسس علمية - رياضية - أو تجريبية). كما تتمثل في مخاوفه من تدخل قوى غيبية في حياته (كالسحر والأماكن المرصودة والجن - وكافة ما وراء الطبيعة من أشياء ومسميات).

رغم ذلك هناك أوجه تشابه تجمع ما بين الأسطورة والخيال العلمي، فالأسطورة تتفق مع الخيال العلمي في أن كلاهما يحاول تفسير الظواهر الطبيعية والبحث عن حياة أفضل؛ لذلك تعتبر الأساطير هي الإرهافات المبكرة لأدب الخيال العلمي، ويخطئ من يظن أن الأساطير هي عمل خرافي صرف. فالأسطورة لها جانب من الحقيقة والواقع، كذلك أدب الخيال العلمي بعيد كل البعد عن الخوارق والفانتازيا الجامحة الجانحة عن الحقائق العلمية.

## حلم الطيران بين الأسطورة والواقع :

إذا كانت أول محاولة واقعية للطيران على يد حكيم الأندلس عباس بن فرناس الفيلسوف والكيميائي والفلكي والفيزيائي الذي ذاع صيته أيام الخلافة الأموية في الأندلس، وقامت تجربته على محاكاة الطبيعة.

ومن الواضح أن "ابن فرناس" لم يقدّر بتجربته إلا بعد درس وعلم في الفلك والفيزياء. وكان يقوم بشرح نظريته في الطيران لتلاميذه في قرطبة، وقام بتجربته أمام حشد من أهالي قرطبة بعد أن غطى جسمه بالريش والحريز فحلق حتى وقع على مسافة بعيدة وأصيب إصابات بالغة جعلته لا يكرر تجربته. وتبع محاولته محاولة "أبي العباس الجواهرى" في "نيسابور" حين صنع جناحين من الخشب ربطهما بحبل وحلق بهما من فوق سطح مسجد؛ فسقط شهيد العلم والتجربة.

نجد أن الأسطورة اليونانية تحكى لنا قصة البطل الكريتي "إيكاروس" الذى صنع لنفسه جناحين من الشمع وألصقهما فى جسمه وطار بهما فى الفضاء، وأخذته النشوة بتحليقه عاليًا حتى اقترب من الشمس، فأذابت حرارتها جناحيه وسقط صريعًا.

## أدب الخيال العلمى فى الموروث العربى :

تعد ملحمة "جلجامش" أول رائعة خيالية علمية وقع تدوينها على الألواح الطينية فى الألف الثانية قبل الميلاد، فأسطورة "جلجامش" السومارية ذات صبغة علمية فلسفية بما حوته من أسئلة حول الإنسان من أين جاء وما هو دوره فى الحياة وما هو مصيره وعلاقته بالآلهة؟.

بخلاف الرحلة التى قام بها "جلجامش"، و"أنكىدو"، فجلجامش كان ثلثاه إله والباقى إنسان وكان رمزًا للقوة والجمال، أما "أنكىدو" فجسمه مغطى بالشعر ويأكل العشب كالحوانات ويستقلان مركبًا فضائيًا تطوف بهما فترة من الوقت بين السماء والأرض فهى بحق أسطورة تعد من البذور الأولى لأدب الخيال العلمى.

يشير الباحث السويسرى "إريش دانيكن" صاحب الكتابين اللامعين (عربات الإلهة) و(الآلهة كانوا رواد فضاء)، إلى الوصف العجائبي لتحليق "أنكىدو" فى الفضاء متعلقًا بالمخالب البرونزية لأحد النسور كما يرد فى اللوح السابع للملحمة : (قال لى : "أنظر إلى الأرض كيف تبدو لك؟ أنظر إلى البحر كيف يبدو لك"، وكانت الأرض مثل جبل، وكان الجبل مثل بحيرة. ثم حلق مرة أخرى لمدة أربع ساعات وقال لى : "أنظر إلى الأرض ماذا تشبه؟ أنظر إلى البحر

كيف يبدو لك؟"، وكانت الأرض مثل بستان وكان البحر مثل قناة الماء التي يستخدمها البستاني. وعاود التحليق لمدة أربع ساعات أخرى وقال: "أنظر إلى الأرض كيف تبدو لك؟ أنظر إلى البحر كيف يبدو لك؟"، وكانت الأرض مثل العصيدة وكان البحر مثل جرن الماء). إن هذا الوصف، يقول "دانيكن"، لا يمكن صدوره إلا من كائن حيّ شاهد الأرض من ارتفاع شاهق، فالوصف بالغ الدقّة بحيث لا يدع مجالاً للظنّ بأنّه نتاج خيال محض!

أما المزج ما بين الأدب وما بين العلم فنجده في قصة "حي بن يقظان" لابن طفيل الذي يعد رائدًا عربيًا في مجال الخيال العلمي، اهتدى بطل قصته من خلال ذكائه وفطرته وملاحظته والتحليل والاستيعاب (وهي خطوات علمية) إلى الإيمان بالله خالق الكون ومصدر الوجود كله.

وكذلك "الفارابي" في مدينته الفاضلة التي يصور فيها دولة مثالية تحقق السعادة لشعبها وتمحو الشر بينهم، ورسالة "الغفران" للمعري التي تغلب عليها الصبغة العلمية والفكرية.. فالأولى تعد من الإرهاصات الأولى لمدن كاملة أتت صورها في قصص الخيال العلمي وأشهرها رواية "فورستر" المترجمة إلى العربية تحت عنوان "عصر الآلة ينهار".

ويرى بعض الباحثين أن عدم الاحتكام إلى مفهوم أدب الخيال العلمي القائم على أسس علمية مقررّة أو نتائج التكنولوجيا المحققة كما هي الحال في كتابات "جول فيرن" يجعل أفق البحث في الموروثات العربية القديمة المتصلة بمفاهيم أدب الخيال العلمي المعاصر واسعًا جدًا ومعقدًا وملتبسًا لكثرة النصوص السردية والشعرية التي عبرت عن طموح الإنسان لتجاوز حدود الزمان والمكان، وعن قدرته على التنبؤ وأمانيه، في اللغة، وفي السيطرة على الطبيعة، وقهر حالات العوز والفقد والتخلف، وميله إلى التحول والتبدل، وتطلعه لنيل الأمنيات صعبة المنال بواسطة الخيال الذي أنتج ما انتمى بداية إلى عالم المعجزات وانتهى نهاية إلى دنيا المنجزات.

### ألف ليلة وليلة أيقونة الخيال الذي لا ينضب:

تعد ألف ليلة وليلة المصدر الأهم للقصص الشعبي الذي من خلال المخيلة الشعبية رسم عالمًا مليئًا بالرحلات والمغامرات والمخلوقات الغريبة في السماء والأرض وحكايات الجن والسحر وغاص في أعماق البحار والمحيطات، ووضع تصورًا خياليًا لاختراعات تسعد البشر مثل "البساط السحري"، و"خاتم سليمان"، و"البلورة السحرية"، و"طاقة الإخفاء"، و"باب مغارة على بابا" الذي يُفتح بشفرة "افتح يا سمس" ، ومدينة النحاس.. فمهد الطريق أمام الإنسانية لتعرف اختراعات مثل الطائرة التي تعد معادلًا للبساط السحري، والتلفزيون الذي يعد معادلًا

للبلورة السحرية، والأبواب الإلكترونية التي تفتح ببصمة الصوت والتي تعد معادلاً لباب مغارة على بابا.

## قصص الأطفال والخيال العلمي :

تستقطب كتابات أدب الخيال العلمي عددًا كبيرًا من القراء وبخاصة الشباب، نظرًا لما تحتويه هذه الكتابات من مغامرات وكائنات فضائية وتشابهها أحيانًا مع الكتابات البوليسية والأدب الفنتازي، واقترابها من أشكال الأسطورة والخرافة وأدب الخوارق، وبسبب تطلعها إلى المستقبل والتنبؤ به.

كما تعد القصة أحد أهم أشكال أدب وفنون الطفل وأكثرها انتشارًا، كما أنها مصدرًا هامًا من مصادر ثقافة الطفل، وتؤدي دورًا في بناء شخصيته بما تحمله من أفكار وقيم ومعلومات وخيال وأسلوب.

والقصة من أشد ألوان الأدب تأثيرًا في نفس الطفل، لأنها تتضمن تلك المثيرات الباعثة على تشكيل سلوكه وتكوين شخصيته. فمن المعروف أن الأطفال يقبلون على قراءة القصة ويرغبون في الاستماع إليها منذ سن مبكرة من حياتهم ويميلون إلى الاتحاد بشخصيات تلك القصص ومحادثاتها، وتقمص مواقفها، ومن ثم يبدؤون بإدراك معايير السلوك الاجتماعي القائمة وراء العلاقات المتبادلة بين تلك الشخصيات فيكتسبون بهذا القدرة على تنظيم سلوكهم تنظيمًا واعيًا وفقًا لتلك المعايير المرغوب فيها، وبهذا تعد مجالًا مهمًا لنمو وعي الطفل وتطور وعيه الاجتماعي.

ومن خلال القصة يكتسب الطفل زادًا معرفيًا متعددًا في العلوم، والمعارف المختلفة، العلمية، والطبيعية، والثقافية، والاجتماعية، كما تستخدم لأغراض تربوية، وأخلاقية، أو علمية، أو فنية، أو ترويحية، فضلًا عن دورها في تنمية الثروة اللغوية للطفل وإمداده بمختلف الأساليب والتراكيب اللغوية.

والقصة المقدمة للطفل بخلاف ضرورة توافر المعايير الفنية للشكل الأدبي الذي تنتمي إليه كأحد الأشكال السردية، هناك شروط خاصة بها لطبيعة المتلقى الذي تتوجه إليه من حيث التصنيف العمري للطفل، سواء من حيث الشكل، أو من حيث المضمون الذي يجب أن يتناسب مع المرجعيات الفكرية والمعرفية واللغوية للطفل، هذه المعايير تختلف وفق التقسيم المتعارف عليه بين المختصين لمراحل الطفولة ما بين نص يخاطب فئة ما قبل المدرسة في المرحلة التي

تنتهى بعمر ٦ سنوات، أو آخر يخاطب المرحلة من ٦ : ١٢ سنة، وما بين نص يخاطب الشباب واليافعة فى سن من ١٢ : ١٨ سنة.

وتتشابه قصص الأطفال مع أدب الخيال العلمى بأن جذورهما الأولى استمدت من الموروث الشعبى، فكما سبق واستعرضنا على عجل علاقة أدب الخيال العلمى بالتراث، نجد أن البداية التاريخية لأدب الأطفال يؤرخ لها بصدور كتاب "حكايات أمى الإوزة" الذى صدر فى فرنسا لمؤلفه "تشارلز بيرو" عام ١٦٩٧م واحتوى على مجموعة من القصص والحكايات الشعبية، وبعدها قدم الأخوان "جريم" فى ألمانيا كتابهما حكايات الأطفال الشعبية. وكثير من النصوص والقصص المقدمة للطفل مازالت تستمد من الموروث إلى يومنا هذا.

كما أن كلاهما يعدان من الأشكال الجديدة فى الأدب التى لاققت اهتماماً كبيراً فى العقود الأخيرة لأهميتهما فى بناء الإنسان وسعيه نحو اللحاق بالمستقبل. وتتجلى أهمية القصص المقدمة للطفل أننا من خلالها نستطيع أن نستكشف توجه المجتمع الذى تُقدم فيه والمستقبل الذى يريد الكبار أن يرسموه لأولادهم.

### أهمية انضباط مفهوم أدب الخيال العلمى :

يعترف كثير من الباحثين بعدم وجود تعريف واضح منضبط لأدب الخيال العلمى، واختلاطه بأشكال أدبية أخرى كالفتازيا والأسطورة والخرافة. إلا أننا نورد هنا تعريف رائد أدب الخيال العلمى "نهاد شريف" الذى استقاه من التعريفات المختلفة للكتاب والمهتمين بأدب الخيال العلمى إذ يعرف أدب الخيال العلمى : "تتأول التقدم العلمى ومنجزات التقنية والتطور الصالح منها والضار من خلال أحداث درامية).. وبالتالي فإن أدب الخيال العلمى هو (نوع من المزج والمصالحة ما بين الأدب والعلم.. فالأول قائم على الخيال والثانى قائم على التجربة واستقراء الواقع والانتهاج إلى قوانين محددة)... إنه أدب (تصور المستقبل) من وجهات نظر مختلفة واجتهادات منطقية متطورة، ويعد أدب الخيال العلمى على الرغم من تنوع توجهاته وتميز موضوعاته أحد أهم الوسائل المعينة للعقل على فهم العالم واستشراق المجهول منه، وزيادة وعيه بذاته وبموقعه التاريخى والحضارى. والتوقع والاحتمال أو ما نطلق عليه (الحلم العلمى) هو جوهر الكتابة فى مجالات هذا الأدب".

ويجب هنا أن نفرق بين القصص العلمية الموجهة للطفل وقصص الخيال العلمى، فالقصص العلمية تنهض على عرض وتبسيط النظريات والمخترعات والاكتشافات العلمية وسيرة العلماء



وما لهذه النظريات والمخترعات والاكتشافات من تأثير في حياة الإنسان بأقرب ما يكون إلى الحقيقة.

بينما قصص الخيال العلمي فهي تقوم على خيال الكاتب المقنن بما وصل إليه العلم من نظريات واكتشافات تقود الخيال إلى الوصول إلى ما هو أبعد مما وصل إليه العلم ليتوقع ما سيكون عليه العالم في المستقبل.

ولا يقتصر استشراف المستقبل على الاكتشافات العلمية والبحثية بل يمتد ليشمل استشراف مستقبل الذات البشرية والقراءات الفلسفية لمستقبل الإنسان مع الآلة ومع ما حوله من منجزات العصر.

وتتجلى أهمية انضباط مفهوم أدب الخيال العلمي في قصص الأطفال مراعاة لطبيعة القيم والمفاهيم المؤثرة في ذهنية الطفل التي يستقيها من النصوص التي تقدم له، والتي يجب الحرص ألا تكون مرتبطة بالخرافة وأن تكون على أسس علمية صحيحة ومبسطة يستطيع الطفل أن يلم بها وتعمل على تهيئة العقل لما يستجد من اكتشافات في المستقبل، وأن يكون (الحلم العلمي) متناسباً مع المرحلة العمرية التي تخاطبها قصص الخيال العلمي المقدمة للطفل دون مغالاة بصورة يمكن لمخيلة الطفل تصورها وتجسيدها، وأن تتخلص القصص من مظاهر العنف وتشابهاها مع أدب الرعب الذي انتشر في الآونة الأخيرة، واختلط في كثير من الأحيان بأدب الخيال العلمي.

وإذا كان الخيال العلمي قد مر بمرحلتين، الأولى لا تعتمد بصورة دقيقة على وصف ما يتخيل من علوم وإنما هي توصيل المتلقى إلى نتيجة الفكرة العلمية بطريقة مباشرة دون المرور على تصورات الحالة العلمية التي أدت إلى تلك النتيجة، ويتمثل ذلك فيما كتبه أدباء الخيال العلمي في القرنين الثامن والتاسع عشر، والمرحلة الأخرى تتمثل بعصرنا هذا الذي هو أكثر تطوراً في رؤيته، فالأديب بات بمقدوره تخيل التقنية الميكانيكية وأيضاً يمكنه وضع التجارب العلمية النظرية والتطبيقية موضع التصور للمتلقى. وهو ما نحتاجه بشدة فيما يقدم من قصص أدب الخيال العلمي للأطفال.

وإذا كان أدب الخيال العلمي قاد الفكر الإنساني نحو الرقى وقدم إسهامات إيجابية بدفع الانطلاقة الحضارية إلى الأمام وبشر بمعظم انجازات العصر العلمية وعمل على تسارع تقدم الإنسانية بإشاراته المتوالية نحو مسار التطور والإبداع، فإنه في الوقت ذاته قاد مسيرة تحذيرية

لشوط العلم والتحذير من مضاعفات سلبية من بعض التقنيات العلمية فيما لو طبقت على الإنسان، فحذر من عمليات استنساخ البشر ومن العبث بالتركيبية الجينية للإنسان، ولعل هذه التنبؤات التحذيرية تتجلى في رباعية الاستنساخ (الإنسان المتعدد - القرية السرية - انقراض الرجل - دائرية الزمن)، وكذلك في رواية الإنسان الباهت.

وإذا كان المتعارف عليه بالحياد العاطفي للعلم قاد البشرية إلى أن تخطو خطوات واسعة في تكنولوجيا أسلحة الدمار الشامل التي تهدد بقاء البشرية مثلما قادها إلى الولوج الحضارى للرقى والتقدم، فإننا في أشد الحاجة للإشارة في القصص المقدمة للطفل بالقيم، والأخلاقيات التي تحمي مخيلة الإنسان العلمية من شططها وأن توظف الاختراعات الحديثة و(الحلم العلمى) لنشر ثقافة السلام، والمحبة، وأن توظف منجزات العصر لصالح التخفيف من آلام البشر ومعاناتهم. وأن تكون قيم الحب، والخير، والجمال قيمًا أساسية في قصص الخيال العلمى الموجهة للطفل، والتنبيه على قيم وأخلاقيات العلم وضرورة توظيفه بما يخدم الرقى الإنسانى ويمنع التقاتل ما بين البشر والكائنات المحيطة به في الفضاء، ليكون التعاون بديلاً للصراع من أجل مستقبل أفضل لكوكبنا.

### أهمية قصص الخيال العلمى الموجه للطفل :

يمثل الطفل الثروة الحقيقية لأى أمة، ولن يتأتى لأى أمة تحقيق منجز واقعى بين الأمم والانتقال من طور حضارى إلى آخر إلا من خلال تربية وتأهيل وإعداد ذخيرتها للولوج إلى المستقبل - ألا وهم أطفالها. وإذا كانت ثقافة الطفل هى اللبنة الأولى لثقافة الإنسان والمجتمع، فإن أهمية بناء الإنسان وفق معطيات عصره ليستطيع أن ينهض مستقبلاً بأتمته تمثل واحدة من أهم اللبانات التى لا يجب إغفالها. وتتجلى أهمية أدب الخيال العلمى الموجه للطفل فى أنه الأدب الذى يستطيع أن يجذب اهتمام الأطفال وبخاصة فى مراحل تعليمهم الأولى نحو العلوم والثقافة العلمية التى قد تبدو جافة حين تدرس لهم بالمدارس، ويعمل على استثارة العقل وتحريك طاقاته الكامنة وبالتالي فهو يساهم فى تسليح الأطفال بالمعرفة العلمية المتجددة التى أصبحت ضرورة لمواجهة الحاضر والمستقبل من حولنا والتفاعل معهما والبحث عن مكان لنا بين عالم سبقنا فى مجال التكنولوجيا، والعلوم التطبيقية، والنظرية، وعلوم الفضاء. ومن المهم أن يصبح الحل العلمى هو الطريق الوحيد الذى ندفع أطفالنا للجوء إليه لحل ما يواجههم من مشاكل، ولن يتأتى ذلك إلا من خلال تنمية وعيهم بضرورة العلم لمواجهة الصعاب التى قد تواجههم وبخاصة أن المخيلة العربية احتشدت بموروث ثقافى يلجأ إلى القوة الخارقة للنجاة من المشاكل، فغالبًا ما نجد صورة

الساحرة الطيبة في مواجهة الساحرة الشريرة، أو يتغلب البطل على مشاكله بمساعدة الجنى، أو عثوره على فانوس "علاء الدين" السحري أو "خاتم سليمان"!!.. كما أن قصص الخيال العلمي للطفل التي تساهم في تكوين الخيال المبني على أسس وأفكار ونظريات علمية تساعد على اكتشاف الأطفال الموهوبين في النواحي العلمية مبكرًا والأخذ بأيديهم نحو التخصص في المجالات العلمية التي شغفوا بها.

تقول "مارغريت وايتكامب"، القيمة على قسم تاريخ الفضاء في المتحف القومي الأميركي للطيران والفضاء، في مقابلة مع نشرة واشنطن في ٩ آب / أغسطس : (ومن المعروف أن الخيال العلمي هو الذي يقرب مفردات العلم من عقلية الطفل، فربط العلوم النظرية بالتطبيق أي تثقيف الطفل علميًا بشكل صحيح لا ينأى إلا بربط العلوم النظرية بالواقع منذ المراحل الأولى للطفولة، وتقسّم مراحل الطفولة إلى أطوار يختلف في تقسيم سنين هذه المراحل علماء النفس إلا أن الغالبية تنفق على أن الطفل بين الثالثة والخامسة يتميز بخياله الجامح المقيد في البيئة التي يحيا فيها، ويقلد بأفعاله من حوله، ويقتبس عنهم أعمالهم وتحركاتهم، لذا يتحتم توجيه الطفل للتعلم الجاد المنتج والعناية بتثقيفه العلمي.

كما أن شحن تصورات وأفكاره بقصص تتحدث عن إنجازات العلم الباهرة، ومستقبله المضيء؛ يزيد التخيل بوصفه عملية استحضار لصور لم يسبق إدراكها من قبل إدراكًا حسيًا كاملاً، مثل استحضار الطفل صورته لنفسه وهو يقود مركبة فضاء أو يلتقي بكائنات عاقلة من كواكب أخرى أو أن ينتصر على بطل العالم في المصارعة).

لقد حان الوقت في خطابنا الإبداعي للطفل العربي أن نستبدل القوة الخارقة المتخيلة التي جعلت أطفالنا يعيشون في عالم من الخيال والأوهام، بقوة العلم والخيال القائم على أسس علمية، فهو وحده القادر على تصحيح مسار أمتنا والأخذ بيد أطفالنا وبأيدينا إلى المستقبل.

### مكانة الخيال العلمي في ثقافة الطفل العربي :

رغم الاهتمام الملحوظ بأدب الخيال العلمي في الثقافة العربية إلا أنه ما يزال يعاني التهميش ولا يأخذ المكانة التي يستحقها في ثقافة الطفل العربي، ورغم ما بدا مشجعًا في فوز رواية "أجوان" للكاتبة الإماراتية "نورة أحمد النوران". الرواية الحائزة على أفضل كتاب لليافعين في عام ٢٠١٣ م في جائزة "اتصالات" لكتب الأطفال، أول رواية خيال علمي تفوز بجائزة عربية كبيرة في أدب الأطفال. إلا أن ثقافة الطفل العربي تشهد احتياجًا ماسًا لكتابات الخيال العلمي

الموجهة للطفل لندرة هذه الكتابات فى الثقافة العربية. وتحتاج هذه الكتابات إلى تشجيع خاص من القائمين على ثقافة الطفل فى بلادنا العربية.

أولاً: بخلق المناخ العلمى ونشر الثقافة العلمية عبر مختلف الوسائل لتكون الكتابات فى هذا المجال نتاجاً طبيعياً لاهتمام المجتمع بالعلم.

ثانياً: أن تخصص المؤسسات الرسمية والخاصة المهمة بنشر كتب الأطفال سلاسل ومجلات مخصصة لقصص الخيال العلمى للطفل تحفيزاً للكُتَّاب والمهتمين بخوض غمار هذا المجال. فأغلب ما يقدم من أدب الخيال العلمى العربى لا يكتب خصيصاً للأطفال ولا يراعى المراحل العمرية المختلفة للطفل ولا النظريات الحديثة لعلم نفس الطفولة.

ثالثاً: الاهتمام بالمؤتمرات والندوات التى تسلط الضوء على أدب الخيال العلمى الموجه للطفل وتخصيص الجوائز الأدبية التى تشجع على الكتابة فى هذا المجال وتلقى الضوء على الإبداعات المتميزة فيه.

رابعاً: تخصيص أقسام بمعاهد الطفولة لأدب الخيال العلمى لخلق أجيال جديدة وقاعدة أوسع من المهتمين والدارسين.

دار الكتب والوثائق القومية